# فيتغنشتاين يعود

ترجمة :
خلدون الشمعة

ظاهرة «فيتغنشتاين» لم تعد تدرس باعتبارها تمثل مرحلة في تاريخ الفلسفة. كما كان الشأن قبل سنوات. ذلك ان «فيتغنشتاين» يعود اليوم بقوة. مع الازدهار المتجدد لفلسفة التحليل اللغوي.
هذا العرض والتقييم التمهيدي لهذه الظاهرة. كتبه الباحث الأميركي روبرت كوهل (R. Kohl).

سألت ابنة أحد أصدقائي والدتها عن المسافة التي تفصل بين منزلهم وبين البحيرة. أجابت الأم بقولها: «أن المنزل يبعد عن البحيرة بمقدار رمية حجر». وقد أثيرت الطفلة بفكرة رمي الحجارة لقياس المسافات، ولم تستطع نسيانها لعدة أيام. بل إنها ألقت ببعض الحجارة لكي ترى إلى أي مسافة يمكنها أن تصل. وهكذا فإن هذه (الكليشة) التي قتلها الترداد في عالم البالغين. دبت فيها الحياة في مخيلة الطفلة. وأظن أن معظم البالغين ينظرون إلى لغتهم على انها أمر مفروغ منه ومسلم به. ولا يشعرون إلا بجزء ضئيل من الرعدة والدهشة اللتين يشعر بهما الطفل خلال تعلمه إتقان اللغة.

ولعل قلّة من الفلاسفة تعاملت مع اللغة الحيّة على أساس أنها أمر مفروغ منه، بأشدّ مما فعل الذريون المنطقيون. كما انه ليس ثمة من فاق الذرّيين المنطقيين في تبديدهم لقدر كبير من مهارتهم في تشييد لغات خاصة بهم وغير صالحة للتخاطب. وعندما انتهى لودفيغ فيتغنشتاين من تأليف كتابه الأول (Tractatus Logico-Philosophicus) أعلن تقاعده عن الفلسفة: «إن ما لا نستطيع التحدث عنه ينبغي أن نتركه للصمت».

لقد حدد فيتغنشتاين ما يمكن قوله منطقيًا. وشعر بضرورة الحكم على الباقي. وعلى نفسه. بالصمت. فغادر انكلترا وعاد إلى مدينته فيينا. وخلال السنوات الفاصلة بين الحربين مارس العديد من الأعمال. واستمع بتردد إلى بعض الفلاسفة الانكليز الأصغر سنًا منه. يحثونه على العودة إلى الفلسفة. وقد عمل معلمًا في روضة للأطفال خلال أعوام عديدة. وبلغ به الأمر إلى حد وضع قاموس خاص بالأطفال الصغار. وشيئًا فشيئًا تخلّى عن عزمه على اجتناب الفلسفة. وعاد أخيرًا إلى ممارستها عندما احتل كرسيًا في جامعة كامبريدج. مزودًا بتساؤل جديد عن الحياة واللغة. وبتنظيم فلسفي جديد أيضًا. ومن الصعب معرفة ما إذا كانت آراؤه الأخيرة قد تطورت بفعل النقود المميزة التي وجهها كل من رامزي (Ramsey) و سترافا (Straffa) و ريس (Rees) أم من خلال الاحتكاك المباشر مع الأطفال الصغار. ومن المؤكد أنه يمكن أن نستشف من كتابه: «استقصاءات فلسفية». شيئًا من تساؤل

الطفل عما إذا كان التواصل موجودًا على الإطلاق.

وبينما استغرق فلاسفة «الحياة المألوفة» بالوظيفة المعقدة لمفهومات متباينة في حياتنا. كان فيتغنشتاين مأخوذًا أكثر بالإشارة. والتعبير. والتواصل بجميع وجوهه الأكثر صميمية وانسانية. وبينما كان فلاسفة التحليل اللغوي قانعين بالتحدث عن المفهومات اللغوية. قدم فيتغنشتاين رأيه الأشد تعقيدًا عن لعبة اللغة. وكان أشد اهتمامًا باللغة والأداء منه بالمفهوم.

ويبدأ فيتغنشتاين بدعوى مفادها ان طريقته «وصفية بحتة». إنه غير عازم على الخوض في الطريقة التي ينبغي أن تكون عليها الأشياء وانما فيما هي عليه. ويقول ان في الاستقصاء الفلسفي: «ما ينبغي أن يقبل. المُعْطى... هذا ما يمكن أن يقوله المرء... هو أشكال الحياة.» ومنذ البداية يفترض ان الناس قد طوّروا طرقًا مختلفة للعيش. وان هذه الأشكال (أو الوجوه) المباشرة والطبيعية. هي المادة الخام لتأملاته. وليس ثمة من سبب متعالٍ (Transcendental) لكون الحياة قد تشكلت وفق أشكالها الحالية بدلاً من التشكل وفق أشكال أخرى. كما أنه ليس من وظيفة الفلسفة تسويغ الحياة عن طريق الحجج أو المبادىء التي تتجاوزها. الحياة تركيب معقد. وهي تُظْهر نفسها في العديد من الطرق. واذا كنا نريد أن نعرف لماذا نفعل أشياء معينة دون أشياء أخرى. فإن فيتغنشتاين ينصحنا بالنظر إلى التاريخ الطبيعي وليس إلى الميتافيزياء. بحثًا عن الأجوبة.

إذا أردنا أن نفهم طبيعة الحب أو الكراهية. لعبة كرة القدم أو لعبة الملاكمة فإن فيتغنشتاين يريدنا أن ننظر إلى الطرق المباشرة التي تطورت من خلالها. إن تاريخًا طبيعيًا للحب إنما يعاين التجارب والأفكار التي حملها البشر عن الحب. والطرق التي خاضوا بها الحب. كما أنه يتعقب التحولات في أفكار البشر وأعمالهم ومفهوماتهم أيضًا. وشيئًا فشيئًا يتكشف لنا شيء من الطبيعة المعقدة للحب. من خلال تاريخه الطبيعي. وقد نتعرف إلى المزيد إذا ما تهيأ لنا أمر معاينة مشاعرنا وصلاتنا. واذا أردنا شيئًا آخر. إذا لم نكن راضين عن التاريخ الطبيعي المعقد. وأردنا أن تُظْهِرَ الفلسفة لنا طبيعة الحب. فإن فيتغنشتاين سيهز برأسه حزينًا. ليس ثمة ما يتعدى البشر وحيواتهم: ليس ثمة جواهر مفردة وغير متبدلة. إن التاريخ الطبيعي للإنسان يكشف لنا عما هو الإنسان اليوم. أما في ما يتصل بالغد أو الأبد فإن التخمين ممكن ولكن اليقين حلم خطر.

ليس بوسع المرء أن يحلل الإنسان في فراغ. ولكي تكتشف ما تكون عليه الأشياء فعلاً. فإن عليك أن تتصدى للوضع الكامل لحياة بشرية اجتماعية. «إن الفم المبتسم يبتسم فقط في وجه إنساني» وعلى المرء أن يتذكر أن «ما يحدث الآن ينطوي على مغزى – في هذا المحيط بالذات.» وهو محيط إنساني. تاريخي. اجتماعي. إن الحياة البشرية تعاش ضمن سياقات المجتمعات الإنسانية وهي ليست أبدية كما انها ليست معزولة.

على الفلاسفة نسيان تاريخ الفلسفة والالتفاف إلى الأشكال المعقدة لحياتنا من أجل أن يدركوا ما هو الإنسان. إن هذه الأشكال لا يمكن تفحصها تفحصًا دقيقًا إلا عن طريق التفحص الدقيق للغاتنا. وعاداتنا. وتقاليدنا وربما أماكن سكنانا.

إن مهمة الفلسفة كما يراها فيتغنشتاين هي على قدر من التعقيد يكفي لإيقاع الحيرة والارتباك ما لم توجد بعض الخيوط التي يمكن تعقبها خلال متاهة الوجود البشري. وقد زودت بدايات فيتغنشتاين الذرية المنطقية. زودته بمفاتيح مكنته من تطوير جهاز ملائم للتعقيد. ومن الطبيعي انه انتقل إلى اللغة ولكنه لم يفعل ذلك في هذه المرة بالمعنى المنطقي الخالص. لقد أمل فيتغنشتاين في الوصول إلى الجوهر المباشر (Actual Stuff) للحياة وذلك من خلال اللغة كما يجري استعمالها.

ولا يمكن للغة كما يجري استعمالها أن تعزل عن الاستعمالات التي تصنع منها. إن «هذا» أو «ذاك» على سبيل المثال. كلمات تنطوي على معانٍ لا يمكن عزلها عن السياقات المحددة التي نستعملها وفقها. فاستعمالها مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالإشارات وبالوسائل الدلالية الأخرى. إنها «ليست الأسماء الوحيدة الصحيحة منطقيًا» كما ظن الذريون المنطقيون. بل إنها ليست أسماء على الاطلاق. فجملة على غرار: «هذه الفتاة قبيحة على الرغم من كونها لطيفة. وتلك الفتاة قبيحة وحسب» لا يمكن أن تؤدي المعنى بمفردها. فما لم نشر بطريقة ما [لا ضرورة لأن تكون لغوية] إلى ما تشير إليه «هذه» و «تلك». فإن الجملة لا تخبرنا بما تقصد أن تخبرنا به. إنها غير صالحة للإتصال. فمن طبيعة كلمة «هذه» و «تلك» ان استعمالها يتطلب إشارة إضافية إلى ما تدلان عليه. وهذا صحيح في ما يتصل بالعديد من الكلمات التي نستعملها في جميع الأوقات.

أما الكلمات الأخرى فهي تتصل بقدر مماثل. بالإشارة والفعل. والسؤال: «ما هو ذلك الشيء الذي يسمونه الحب» تصعب الإجابة عليه بالمصطلحات اللغوية وحدها.

ينبغي النظر إلى اللغة من خلال المنظور الأوسع لأشكال (أو وجوه) الحياة التي تلعب فيها اللغة العديد من الأدوار. ويشير

فيتغنشتاين إلى ذلك عندما يؤكد على ان «تصور لغة ما معناه تصور شكل من أشكال الحياة.» وهو يمضي إلى حد يسعى فيه إلى اجتناب استعمال كلمة «لغة» كلما تسنى له ذلك. ويقدم تصوره الخاص عن لعبة اللغة. إن لعبة اللغة هي تركيب من الكلمات والإشارات والمشاعر.. الخ. هذا بالإضافة إلى القواعد الخاصة باستعمالاتها المناسبة بحيث يتشكل نظام كامل من التواصل الإنساني.

ومن السهولة بمكان أن نتخيل لعبة بسيطة للغة. يقول أحدهم «NOWL» مخاطبًا رجلاً آخر لايلبث لدى سماع الكلمة أن يقدم له قطعة من الخشب. وفي مرة ثانية لا يقدم الرجل الآخر شيئًا. فماذا يمكن أن تعني كلمة «NOWL» بالمصطلح المنطقي المجرد.؟.. إنها ذات دلالة في سياق يكون فيه الرجلان اللذان يعرفان كيف يستعملانها. يرغبان في نقل بعض الأخشاب. إن كلمة «NOWL» جزء من لعبة معقدة للغة تنطوي على قواعد محددة في ما يتصل باستعمالها. إنها ذات مغزى فقط في شكل من الحياة يكون فيه نقل الأخشاب عملاً ينطوي على معنى ما.

قبل المضي في ممارسة أي لعبة من الألعاب. يتعين فهم وتطبيق قواعدها. إن رجلين اثنين يظلان عاجزين عن لعب الشطرنج إذا ما حركا الأحجار على نحو جزافي. فالملك ينبغي تحريكه بطريقة معينة. والملكة بطريقة أخرى. والا فليست اللعبة التي يلعبها الرجلان هي الشطرنج. والأمر نفسه ينطبق على ألعاب اللغة. فثمة قواعد تتحكم في استعمال الكلمات في ألعاب اللغة. ولا يمكن استعمال هذه الكلمات استعمالاً صحيحاً إلا عندما تتم السيطرة على هذه القواعد. فالجزء الأعظم من تعلم اللغة متضمن في السيطرة على قواعد استعمال الكلمات.

**ولكن وجه الشبه بين الألعاب العادية وبين ألعاب اللغة يزول هنا. في معظم الألعاب العادية نستطيع أن نقرر القواعد علانية ونتعلمها من كتاب خاص بقواعدها. أما تعلم اللغة فهو أقرب الى تعلم لعب لعبة ما منه إلى تعلم قواعدها، وإننا لنتعلم كيف نستعمل الكلمات على نحو صحيح من خلال المحاولة والخطأ، التقليد والتجربة. وعندما نفعل ذلك فإننا نستعملها وفق قواعد ألعاب اللغة التي نلعبها، ولكننا نادراً ما نجهر بهذه القواعد. وبشكل عام فإننا لا نعود إلى القواعد للتأكد من إستعمال كلمة ما إلا عندما يكون لدينا سبب يدعونا إلى الاعتقاد بأننا نستعملها استعمالاً خاطئاً.**

وعلى سبيل المثال يحدث أحيانًا ان الذين يجادلون طيلة ساعات عما إذا كان من الصواب إطاعة القوانين عندما لا تكون مطبقة. يصلون إلى طريق مسدود. إذ تنشأ برهة صمت محرجة ثم يتساءل أحدهم: «ماذا تعنون بكلمة «صواب».؟» وسرعان ما يتبدل اتجاه المحادثة بأكمله. ويحل محلها نقاش حول معنى واستعمال كلمة «صواب». وقد يحدث أن يكتشف المسهمون في النقاش ان عدم اتفاقهم الأساسي قد نتج عن استعمال كلمة «صواب» بمعنيين مختلفين. فيجدون انهم لا يمكن ان يختلفوا اختلافًا عقلانيًا حول الحقوق والقوانين ما لم يكونوا قد أفلحوا سابقًا في الاتفاق حول استعمال كلمة «صواب».

**ولأسباب مماثلة فإن العديد من الأسئلة التي يسألها أطفال هم في طور تعلم اللغة تثير الحيرة لدى البالغين. فقد يسأل أحد الأطفال عما إذا كان «كرسي» يشعر بالألم أو يسأل عما إذا كان «معطف» يشعر بالتعاسة. وقد يعزو البالغ ذلك إلى الأنيمية (أي الأعتقاد بأن الأشياء لها روح) الطفلية أو التفكير السحري أو حتى إلى رغبة الطفل في «إدهاش» البالغ عن طريق اللجوء إلى طرق «غير مألوفة» في الكلام. وقد يتبين أن الطفل لما يتعلم بعد اننا لا نستعمل كلمتي «يتألم» و «غيرسعيد» إلا في ما يتصل بالكائنات البشرية أو ما يشبهها من مخلوقات. وربما يكون الطفل قد شرع للتو في استعمال هذه الكلمات. فهو يجربها بهدف معرفة تطبيقاتها العملية المناسبة. وعندما يخبرونه أنه لا يجوز استعمال هذه الكلمات مع الأشياء غير الحية. فإنه يتعلم شيئًا عن كيفية التفكير بالأشياء غير الحية واستعمال كلمتي «يتألم» و «غير سعيد». إنه يتعلم لعبة اللغة المتعلقة بالشعور. ومن خلال تصحيحنا لكلامه. يتعلم استعمال الكلمات على النحو الصحيح. وبعد فترة يصبح قادرًا على اتباع قواعد لعبة اللغة. على الرغم من أن هذه القواعد لا تقدم إليه على نحو مباشر. إنه يتعلم استعمال اللغة.**

ومع ذلك فإذا لم يصادف الطفل من يصحح له اخطاءه. فمن السهل أن نتخيل إلى أي مدى من الغرابة يمكن أن تصل إليه لغته. إن لغتنا كما يرى فيتغنشتاين ملك مشترك وعندما ننجح في الاتفاق على قواعد خاصة باستعمالها يمكن أن تكون لها دلالتها في الاتصال. وهذا هو السبب الذي يجعل فيتغنشتاين يردد باستمرار: «المعنى استعمال». أي ان معنى كلمة ما هو الاستعمال الذي تستعمل وفقًا له في لعبة اللغة المناسبة.

ما الذي يحدث إذا ما أخفق أحدهم في تعلّم استعمال الكلمات استعمالاً صحيحًا؟.. يؤكد فيتغنشتاين بطريقة نموذجية مستحدثة. أنه غير قادر على التواصل معنا. وان أي إنسان حاول مرة. تعليم الكلام لطفل مصاب في عقله. يمكن أن يدرك بسهولة

حدّة هذه الملاحظة وصرامتها.

وقد يعترض المرء على الدعوى القائلة بإمكان وجود لغات خاصة. لغات بإمكان شخص واحد فحسب. معرفتها. إن مثل هذه اللغات لا بدّ أن تتصل بالأوجه المباشرة والتي لا تتكرر لتجربة فرد ما. كما انها ستكون شبيهة بلغات الذريين المنطقيين التي لا يمكن التحدّث بها. هل يمكن أن تكون اللغات الخاصة من هذا الطراز. لغات على الاطلاق؟..

يجيب فيتغنشتاين بـ«لا» قاطعة. إن لغة خاصة ما لايمكن أن تكون لغة. ذلك انه لن تكون ثمة طريقة البتة. للتحقق مما إذا كانت كلمة من كلماتها تستعمل استعمالاً صحيحًا. وإذا ما حاولت - على سبيل المثال - أن استعمل كلمة «أحمر» لأشير إلى ما رأيته مباشرة عندما رأيت اللون الأحمر. أي إلى لوني الأحمر «الخاص». فليس لدي من طريقة للتحقق مما إذا استعملت كلمة «أحمر» بالطريقة نفسها في لحظتين مختلفتين. إن فيتغنشتاين يقصر لغته المبكرة الخاصة و«الصافية» منطقيًا على مجال اللاّلغة ( Non-Language ) وعلى التأمل الكسول. اللغة عامة بطبيعتها.

هل يكفي الاتفاق على قواعد ألعاب اللغة من أجل تحقيق التواصل.؟ من النادر أن يحدث ذلك. يوضح فيتغنشتاين أنه يتعين وجود تنظيم عام يحقق اتفاقًا وتطابقًا بين تجاربنا وبين تجارب الآخرين. وذلك قبل أن نتمكن حتى من الوصول إلى مرحلة الأتفاق على القواعد. وكما يقول:

«إذا كان للغة أن تكون وسيلة اتصال فإنه يتعيّن وجود اتفاق ليس على التعريفات فحسب وإنما على الأحكام أيضًا (مهما بدا ذلك غريبًا). ويلوح ان هذا إنما يقضي على المنطق قضاء مبرمًا. ولكن الأمر ليس كذلك. فأن تصنف طرائق القياس شيء. وأن تحصل على نتائج القياس وتعرضها شيء آخر. بيد أن ما ندعوه بـ«القياس» إنما يحدده جزئيًا وجود ثبات ما في نتائج القياس.».

ولنفترض ان في وسع بعض الناس ان يتعلّموا قواعد القياس. أي كيف يضعون المسطرة وكيف يقرأون الجواب من مقياس مدرّج.. الخ. إنهم يحاولون قياس كرسي. ويقول أحدهم أن مقياس الكرسي يبلغ إنشًا. ويقول ثانٍ: (١٦) إنشًا. وثالث: (٦٢) إنشًا. ولدى المراجعة يجدون أن مقياس الكرسي يتألف من النسب التالية: (١٧) إنشًا. (٤) إنشات. (١١) إنشًا. لم يكن هناك من ثبات في تجربتهم. والحق أنهم لم يتوصّلوا إلى الأحكام نفسها على الرغم من أنهم فهموا قواعد القياس وطبّقوها تطبيقًا صحيحًا. في هذه الشروط لا يمكنهم إجراء القياس. هذا على الرغم من اتفاقهم على قواعد لعبة اللغة الخاصة بالقياس. إن الاتفاق على أحكام. وثبات. وعمومية تجربة ما. هي الشروط الأولية للاتصال. ودون وجود هذا الأساس المشترك للتجربة. لا يمكن للناس الاتصال واحدهم بالآخر. كما أن عوالمهم ستكون شديدة التباين والاختلاف. مهما بلغت درجة اتفاقهم حول القواعد أو الأصوات.

ولنتأمّل الأحجية الفلسفية المعروفة حول ما إذا كنت أنت وأنا نرى «حقًا». اللون الأحمر نفسه داخل رؤوسنا. إن فيتغنشتاين يرى أننا ما لم نكن قادرين أساسًا على الحكم على أن الأشياء نفسها حمراء اللون فإننا لا نستطيع استعمال كلمة «أحمر» البتة. واذا ما أعار الطفل انتباهه لشكل الشيء في كل مرة حاولت فيها أمه أن تعلمه معنى كلمة «أحمر» بدلاً من أن يعير انتباهه للونه. فإنه لن يتعلم الكلمة إطلاقًا. سيقول هذا الطفل «أحمر» في كل مرة يرى فيها أشياء مربعة أو دائرية الأشكال. وتضطر أمه إلى تصحيح ما يقوله باستمرار. لن يكون ثمة من أساس مشترك في تجربتها يمكن أن يؤسس لاستعمال كلمة «أحمر» ولكن إذا أدرك الطفل الألوان بسهولة ويسر ورأى اللون الأحمر كلما أشارت أمه إلى شيء أحمر وقال «أحمر». فلن تكون هناك مشكلة.